الحسناء

الجزء العاشر المجلد الثاني

بيروت شهر نيسان سنة ١٩١١

كاترين برشكوفاسكا

قرأت في احدى المجلات الاميركية ما نصه « ان كاترين برشكوفاسكا مقرّ الثورة الروسية ومحجة الاشتراكيين في بلادها التي وقفت قلمها وكرّست حياتها للحصول على الدستور والتمتع بنعمة الحرية وتحرير الفلاحين البسطاء من ربقة ظلم الامراء قد اتت نيويورك منذ بضعة ايام وهي لا تنفك تخطب في كل ناد بين الجماهير والجماعات مظهرة احوال روسيا الداخلية فقامت الصحف الاميركية تنبئ بحلولها وتفتح صدرها الفسيح مرحبة باقوال الزائرة الكريمة

وهذه بضعة اسطر بقلم (ارنست بول) تظهر بسالتها وثباتها على مبدائها الشريف بالرغم عما صادفته من ضروب العذاب في سيبيريا وثقل وطأة المستبدين ومهارة الجواسيس في روسيا وهذا ملخصها. « ان كاترين برشكوفاسكا ابنة رجل مثري كريم حكم عليها بالاشغال الشاقة والنفي نحو ربع قرن بين ثلوج روسيا وديبها البيض وقد انتهت مدتها التي في اثنائها احتملت مشقات ينوء تحت اعبائها رضوى وقاست من اليم الجور ما قاست وعادت من منفاها غير عابئة بما جرى لها ولا مكترثة لما كابدته من الاهوال فلم يكن ذلك البرد القارس الا ليبعث في صدرها روح الازدراء والسخرية بالنفي والنافي وليودع ما بين جنبيها ناراً آكلة تهلع لهولها

نفوس المستبدين الظالمين وكأنّ اتعاب الاشغال الشاقة جدّدت قواها الادبية ونبهت افكارها الى واجباتها فقابلت اتعابها بعزم ثابت لا يعرف الملل وهمة قعساء لا يدنو منها كلل وقد بلغت الحادية والستين من العمر ولا تزال دائبة في عملها مستقبلة اكليل شيخوختها بثغر يبتسم سروراً وقلب يرقص حبوراً لان آمالها في المستقبل انستها كل اتعابها

وكم قوم نسوا ما كابدوه من الاهوال في زمن الشباب
وآمال لهم أحيت نفوساً تذلل ما اشمخرّ من الصعاب

فآمالها سهلت امامها العقبات وجرّأتها على طلب الدستور مع ان الاخطار والتهديدات احدقت بها من كل جانب ولم تفعل ذلك الاّ لأنها تعتقد انه لا بد من ان تنهض تلك الملايين المظلومة بعد وقت قصير بروح واحدة وساعدقوي لتحطم قيود العبودية والظلم وتمرح بنعمة الحرّية تحت حماية الدستور واليك ما قالته الى احد الاميركيين اثناء حضورها الى نيويورك .. « انا نحن الاحرار الروسيون سندوس الاوامر الظالمة ونحرر روسيا من هذا الاستبداد آه الى متى يظلم الانسان اخاه ؟ أطال ظلم الانسان للانسان

انظر الى هذه الاشباح التي لحقت بي من زملائي الثائرين فهي لا تبرح من افكاري ان ليلاً او نهاراً في مخدعي او عند اكلي وشربي وهي لا تنفك تمثل خيالات الحرية المحبوبة تروح وتغدو امامي خيالات اوشكت ان تتلاشى من مخيلاتكم ايها الاميركيون لان الدهر قد اكل على راسها وشرب »

ومما يندر جداً وجود نساء يقوون على احتمال الاخطار والاحزان والصعوبات كالتي احتملتها هذه مدة حياتها فبعد الدرس الطويل والبحث الدقيق ايام نفيها استقصت سرّ انحطاط حياة الفلاح الروسي التاعس واكدت انه لو عتق

ذلك المخلوق من عبودية سيده لطالب مبدأ آخر يملكه لانه لم يالف الاحياة العبودية وهذا ما حرك عاطفة الشفقة في قلب برشكوفاسكا حتى انها استغنمت الفرص لترفع حياة الفلاحين فتزيت بزيهم مع انها ميسورة وتلذذت باحاديثهم التافهة مع ان عقلها ارقى من عقولهم بدرجات فالفت جمعيات عديدة وكثيراً ما كانت تذهب الى الاجتماعات الليلية في تلك الاكواخ الحقيرة . وقد وصفت اجتماعاً بهذا الكلام ..

« اجتمعنا مرة في احد البيوت المصنوعة من الاخشاب المطلية بالطين وارضه مغطاة بلبن كثير الغبار صيفاً والاقذار شتاء يكاد راس الداخل اليه يمس السقف و كان ذلك البيت لفلاح شجاع اصطفيته دون سواه لما كان فيه من الجسارة والجرأة ولانه دفع بنفسه مراراً كثيرة الى التهلكة حباً بالحرية وحسبه شجاعة انه سمح بعقد اجتماعات كهذه في منزله الخاص و كان يؤم هذا البيت في مثل هذه الاوقات عدد ليس بقليل من اولئك الفلاحين لم تقوَ على اذلالهم بلاد سيبيريا بما سامتهم من الوان الضيم وأشكال الجور والذين آثروا اشغالها الشاقة على حمل نير العبودية في روسيا الوطن المحبوب مثل هؤلاء كنت احدث وفيهم ابث روح الاستقلال والحرية فاعدت على مسامعهم ذكر تلك الضربات المؤلمة وذكرت النساء بموت رجالهن تحت السياط او بين ثلوج سيبيريا فعلت ضجة من الفريقين وايما ضجة لا يخالها السامع الا صدرت من مجموع حيوانات برية حتى ان الثيران المربوطة في مزاربها قرب البيت شرعت تخور كانها شعرت معنا بثقل وطأة الامراء فودت مساعدتنا بقدر امكانها فارغمناها على السكوت ثم استأنفت الكلام بقولي ان اللوم كل اللوم عليكم ايها الفلاحون فلماذا ترتضون ان تاخذوا قطعاً صغيرة من الاراضي الجدبة والامراء يملكون اكثر الاراضي واجودها

يا قوم ! لا تنالون السعادة والرغد في حياتكم ما لم تمتلكوا الاراضي فجدوا لنيل هذه الامنية باكثر من امكانكم وها اني سابا شر في تاليف رواية بها اعلمكم كيف تثورون وباية الطرق تطلبون حقوقكم المقدسة واوزعها عَلَى كل من تهمه معرفة هذه القضية ولم أنهِ كلامي هذا حتى اشرأبت الي اعناقهم وجحظت في اعينهم كأنهم يودون ان يطلعوا عَلَى محتويات تلك الرواية المكنونة في صدري وكل اشتهى ان يحصل عليها في القريب العاجل وبعد ان طلبنا المساعدة من العزة الالهية حللنا عقد الاجتماع »

لم يمض الا بضعة ايام حتى اصدرت منشوراً ووزعته عَلَى عموم الفلاحين الثائرين وهذا نصه — « اكتب لكم في الشروط التي دخلت آذانكم مراراً عديدة وقرعت ابواب قلوبكم . فلكي تفوزوا بالحرية عليكم اولاً ان تمتلكوا ما امكنكم من الاراضي والاطيان

ثانياً ان ترفضوا احكام الظلم كل الرفض وتسعوا في تقييد الشوكة المطلقة هوذا البريد ينقل كتاباتنا الى . كل انحاء المملكة ومئات من المطابع تشتغل في سويسرا بلا انقطاع وكذا المراسلات السرية تسير بكل سهولة ولا معارضة فلا تجزعوا من اقل خطر لان اوامر مجلسنا المحلي تسير سير النسيم فتقود بقية المجالس في كل روسيا . نعم انه لا يلتئم الا مراراً قليلة في السنة وبواسطة الاصطلاحات السرية المتفق عليها بين اعضاء المجالس نتمكن من تنفيذ اوامرنا وابراز افكارنا في اي وقت اردنا . الى الفلاحين ومجموع الفعلة الذين يحتون الوفاً اوفاً في الاكواخ غير خائفين الاخطار المحدقة بهم قول « الثورة العمومية هي جل ما نقصد وهوذا وقتها قد اقتربت الحرب الروسية اليابانية القت اوزارها واثرت تاثيراً مراً لم يحلم به الروسيون من ذي قبل . الى الاستمئة والاربعة والستين

الف نفس التي هلكت في الحرب العديمة النفع نضيف مئة الف حتى يعم المصاب كل عائلة روسية وحتى يندب الاب ولده والام ابنتها والاخ اخاه والعروس حبيبها حينئذ تصرخ الاربع مئة الف الباقية بالملايين التي حولها وتقوم لطلب الحرية.

من الاسلحة لنا شيء كثير. لماذا لم تطلق بنادق الجند على الشعب اثناء الفتنة السابقة؟ ذلك لان اكثر افراد الجند حتى القواد من اعضاء الفتنة فبذلوا جهدهم في مساعدتنا. اسلحة؟ نعم وفوق ذلك عندنا رجال مفكرون لان الرجال المهذبين وارباب الصنائع الحكماء قادوا الثوروبين المشتاقين الى ان دنا الاجل المضروب وفي كل المجامع يوجد مئات من الخطباء الذين يثيرون العواطف ويحركون النفوس لايقاد جذوة الثورة وفي السنة الاخيرة نشب الاضطراب فجأة فقام للحال ٤٠٠,٠٠٠ بطل يدابون ليلاً نهاراً في اوقات الشغل والراحة في النوم واليقظة في نشر مبادىء الحرية وخلاصة كل اعمالهم تدور على محور هذه الالفاظ المقدسة. حرية مساواة. عدالة

كانت السيدة بريشكوفاسكا تحيي الآمال وتظهر علامات الظفر في كل مقالة تنشرها او عمل تبديه في سبيل الحرية ومما قالته في هذا الصدد: «آمالنا لتحقق على ممر الأيام لان ما بلغته روسيا اثناء العشرين سنة الاخيرة من الرقي والاستنارة امر لم يكن في الحسبان. داخلية البلاد قد انقلبت باسرها. دماء نخبة بنيها التي اهرقت يوماً بعد يوم قد دخلت شرايين الشعب قطرة قطرة واثرت في ادمغتهم واعصابهم فاضرمت جذوة الثورة في قلوبهم حتى قاموا يقتتلون في سبيل حقوقهم وهم الك في سيبيريا يرى الناظر جماعة من الشبان والشابات المتهذبين محاطين بمئات الوف من الفعلة والفلاحين من كل الاجناس والملل الموجودة في روسيا يسامون انواع العذاب هؤلاء اصبحوا شغل الروسيين الشاغل

ورغماً عن ضغط الحكم الاستبدادي المطلق تسنى لهم ان يبحثوا في احوال مدينتهم وشؤونهم الاجتماعية ويقابلوها مع احوال مدينة من يجاورهم من الامم الاوربية الراقية و كان لسان حالهم يردد هذه الكلمات ما اغزر الدماء التي سفكت في سبيلك ايتها الحرية وما اغلى النفوس واعظم الثمن الذي دفعناه للحصول عليك فما اعزك لدينا واعز لك عنا ....

ولكن لا تذلوا ايها المواطنون الاحرار ولا يروعنكم هول المسلك بل قوموا بروح المساواة الواحد وادفعوا انفسكم الثمينة في سبيل الحرية ولا ترجعوا من جهادكم ما لم تهيئوا لبلادكم مكاناً في ذروة المجد واعلموا ان لنا قوة تحميها اذا بدا محظور قد دنا الوقت الذي فيه تشاطر الامم الاوروبية رقيها ومدنيتها. فمن وسط هزيم المدافع الفاتكة باخوانكم في الشرق الاقصى ودخان التقدمات المتصاعد نحو السما تسمعون اصوات اخوانكم تردّد هذه الكلمات

الحياة بالحرية * السعادة بالمساواة * الشرف بالعدالة

هذا ما فعلته برشكوفاسكا الروسية فهل يوجد بين فتياتنا نظيرها يحرّرن عقول اخواتهن من ربقة الاوهام والتقليد ويربين رجالاً اشداء مهذبين يشد بهم أزر الوطن . أنظرن الى اقدام برشكوفاسكا وتعلمن

حمص عبدالله نادر

سلب الرجال ثقتهم من النساء واعتقدوا انهن اعوان ابليس . فلا تسمع الا ذماً لخصالهن وتنقيصاً لعقولهن وتحذيراً من مكرهن . وانا لا ابرئ النساء الان من هذه الصفات . ولكن أرى ان التبعة ليست عليهن . بل على الرجال

« قاسم بك امين »